التشتت وغياب الدلالة في النص الشعري المعاصر (ادونيس انموذجاً)

أ.م.د. زينب هادي حسن م.م. محمد أنور اسماعيل

إنحاز الخطاب الشعري العربي القديم بكونه خطاباً واضحاً ومفهوماً من حيث لغته وموضوعاته، ولعل ذلك مرتبط بطبيعة هذا الخطاب أولاً، والبيئة التي ظهر فيها ثانياً، فضلاً عن التماسك بين مكونات ذلك الخطاب، وما أن توالت الدعوات إلى الخروج عن الشكل الشعري القديم حتى شهد الخطاب الشعري تحولات عدة متمثلة في البناء والأفكار، وما لبثت أن تحولت إلى خروج مطرد عن اطار السياق الشعري المألوف إلى عوالم أكثر غرائبية إلاّ أنها في الوقت نفسه ألصق بالشاعر من حيث استكناه المناحي الباطنية لديه، ولعل هذا كله مرتبط بالحداثة، إذ أن هذا المفهود بدأ يرتبط عند الشعراء بالحضارة، بمعنى أنه يعكس فهماً جديداً للكون والإنسان والمجتمع، وهذا المفهوم يقوم على الرؤيا الشعرية التي هي بطبيعتها قفزة خارج المفاهيم القائمة، فالحداثة إذن ليست دعوى شبيهة بالعصرية، لأن الحداثة تنفي الوصف من أدوات الشعر[1] وهذا أمر طبيعي إذ أن الوصف يجرد الشاعر من الاطلاق نحو عوالم خيالية مضببة، وإذا ما وضعنا في حسباننا بأن الحداثة تعني الرؤيا والكشف، فإن ذلك بطبيعة الحال سيحيلنا إلى الحفر في أعماق النفس الإنسانية، الأمر الذي يتطلب ثقافة فيها من العمق والبعد والشمول مما يؤهل الشاعر أن ينهض بتقنيات خاصة لهذه الرؤيا وهذا الكشف أنها تقنيات اسلوبية قد يصعب في كثير من الأحايين على المتلقي، لاسيما غير المثقف، فمهاً وادراك مغزاها لاقترانها بالغرابة والتعقيد كما أن هذه المفاهيم من (رؤيا وكشف وحفر) قد تتوجه

(١) ينظر: الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها، محمد حمود: ٦٣-٦٤.

عند كثير من الشعراء إلى حيث اللامرئي والمجهول فيما يعتقد الشاعر أنها حقائق وأسرار كونية في الوقت نفسه[١].

ومن هذا العوالم انبثق النص الادونيسي إذ أنه اعتمد على (مصادرات لا عمودية تتمثل في أولوية المجهول والخرق والتكسير والتيه واللامألوف واللامنطقي واللاعقلي) [٢] في سعي حثيث إلى إنشاء نظام دلالي جديد يسعى من خلاله إلى إيجاد معنى عام، إذ أن الشاعر جعل من الشعر رسالة مؤدية لغرض ما لدى المبدع نفسهُ وهذا ما عبر عنه البعض بـ شعرية مشوبة فالشعرية الأدونيسية هي (ممارسة هرمونيطيقية يحضر في صلبها سؤال الذات والكتابة كإثارة حيوية لأبعاد الكينونة المتعددة التي تخضع لألية الكشف بما هو فهم وتأويل يعيد طرح أسس مساءلة الوجود من أجل بناء حوار خصب مع مختلف أشكال الأثر المكتوب منه أو المنسي في اللاوعي الفردي والجمعي أيضاً) [٣]، بمعنى آخر أن الشعرية الأدونيسية هي شعرية تأويلية تقوم على أساس إعادة صياغة المفردات والتراكيب صياغة جديدة مختلفة عن سابقتها؛ والهرمونيطقيا هي نظرية التأويل وممارسة هذا التأويل، وقد ركزت الهرمونيطيقيا على المؤلف كمصدِر للمعنى[٤].

إذ أن الشعر عملية ابداعية خلاّقة تقدم على أساس المزاوجة ما بين الموجود في عالم الواقع وبين المتخيل الشعري، أو كما يعبر عنه ادونيس " ليست مهمة اللغة شعرياً أن توضح الشيء، وإنما هي أن تنشئ منه علاقة جديدة لذلك ليس الشعر طريقة في رصف العالم وإنما هو طريقة في تغييره "[٥].

---

(١) ينظر: الإبهام في شعر الحداثة، عبد الرحمن محمد القعود: ٢٤.

(٢) الشعر والتأويل، عبد العزيز مسهولي: ٩.

(٣) المصدر نفسه: ٧.

(٤) ينظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد اليازعي: ٨٨-٩٣.

(٥) النظام والكلام، ادونيس: ١٩٨.

وهذا يعني فيما يعنيه أن ثورية الشعر هي الدعوة التي أطلقها ادونيس في نصوصه، والتي أدت إلى التشتت وغياب الدلالة في كثير من نصوصه، وذلك نتيجة لإستغلاقها وانطوائها على الغموض، الذي قد يؤدي في كثير من الأحايين إلى غياب المعنى لدى المتلقي وهذا ناجم بطبيعة الحال عن رغبة الشاعر في تحري الغموض لأنه يرى فيه عمقاً وغنى، فأدونيس يحيل الغموض إلى الحداثة التي تعني فيما تعنيه " انقطاع سلسلة معطيات يصر وارثوها على أن تتطاول وتستمر، بهيئتها وعناصرها. ومثل هذا الانقطاع يقود إلى ضياع القارئ الذي لا ذخيرة له غير الذاكرة الحافظة، وغير التقليد والعادة. فالقول بالغموض إسقاط: إنه وليد هذا الضياع. إنه ناتج عن عدم إدراك الفرق بين طريقة التعبير القديمة، والطريقة الحديثة. وعن عدم إدراك معنى زمنية الشعر، وعن الحكم على اللحظة الحاضرة بلحظة تعود إلى حوالي عشرين قرناً. وهو ناتج كذلك عن تغيّر النظر والوعي في حركية التحول "[1] يكشف هذا النص عن جملة من المعطيات، إذ حدد ادونيس من خلاله مشكلة القارئ، الذي يفتقد إلى الخلفية الثقافية والعلمية، فضلاً عن الخلفية اللغوية التي تجعل منه مدركاً لمستويات اللغة، ولاسيما الدلالية منها تحديداً. إذ أن الانقطاع يحصل عند القارئ غير المثقف في ظلّ نص حديث مليء بالإشارات والدلالات والرموز التي غالباً ما يوظفها الشاعر المبدع الحداثوي بحسب ذائقته الأدبية فالشاعر غير معني بفهم القارئ للنص ولمغزاه.

كما أن لغة النص " لا تقول ما تظهره وحسب وإنما تقول كذلك شيئاً آخر باطناً أو احتمالياً، هذا الشيء الآخر هو البعد الأكثر أهمية في القصيدة "[2]، فالنص يحمل في طياته دعوة إلى أحداث ثقافة واسعة في المجتمع؛ وذلك من أجل استيعاب الشعر الجديد الذي يستند إلى طاقات ايحائية ودلالية ورمزية تعطي مفهوماً

---

(١) زمن الشعر، ادونيس: ١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣.

باطنياً هو نفسه ما يقصده المبدع، وليس الظاهرة المكشوف عنها في النص، وهنا يكمن التغيير الذي نادى به ادونيس والذي شف عنه جل شعره، لاسيما أنه يقول بثورية الشعر ضد التقاليد البالية القديمة، كما يحدث في الواقع بثورة المجتمع على السلطة، فسلطوية المبدع هي ثورته اللغوية، كما أن هذه السلطوية التي قد يمارسها المبدع في نصوصه غالباً ما يغادرها من نص لآخر، بل أنه قد يتغلب عليها في كثير من الأحاييث؛ لأنه يؤمن بتهميش الواقع وتبديده ليعيد من ثم خلقه وذلك كله مرتبط بالذات الشعرية التي يستند عليها فيما بعد اللغة والشكل.

إن المتأمل في شعر ادونيس يجده يوظف المفردات والكلمات على نحو قسري لاعفوي؛ لأن الدال تنتجهُ مخيلته الشعرية ثم تظهره متشابكاً حاملاً لزحم قوي من الاستشكالات الجمالية والفلسفية والشعرية التي تتوخى الدهشة والجمالية بين عوالم متداخلة يشتبك فيها ما هو فني وما هو ميتافيزيقي[١] ولاسيما أن الميتافيزيقيا تعين الشاعر في نقل تجربته الشعرية بحرية تامة، فهو غير معني بالأفكار إلاّ من حيث انعكاسها وانصهارها في نفسه، في محاولة لاستبطان العالم والجهد من القبض عليه دون حل أو تحديد، وخارج كل نسق أو نظام عقلاني منطقي[٢]، وهو إذ يخرج هنا عن المألوف يؤدي باللغة أي التشتت والغموض، فضلاً عن غياب الدلالة، وهنا تصبح لغة كتابته غير طبيعية أو متناقضة، الأمر الذي يسهم في إرباك القارئ، لاسيما مع جدته في المعالجة والطرح على نحو ما نجده في قصيدة البعث والرماد التي يقول فيها ادونيس:

أحلم أنّ في يديّ جمرة
اتيه على جناح طائر
من افق مغامر

---

(١) ينظر: الشعر والتأويل: ١٠٦-١٠٧.

(٢) ينظر: زمن الشعر: ٢٨٠.

أشم فيها لهيا – قرطاجة العصور
ألمح فيها امرأة
يقال صار شعرها سفينة،
ألمح فيها امرأة – ذبيحة المصير
أحلم ان رئتيَّ جمرةٌ
يخطفني بخورها يطير بي لبعلبكْ
بعلبك مذبوح
يقال فيها طائر مولَّهٌ بموته
وقبل بأسم غده الجديد بأسم بعثه
يحترق
والشمس حصادهُ والأفق[١]

إذ وظف ادونيس في نصه هذا ما هو ميتافيزيقي (وهو الفينق) ذلك الطائر الاسطوري الذي يحترق ليخلق رماداً، ثم ما يلبث أن يعود فيبعث من رماده.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رمز الفينق كان من أول الرموز التي اقتحمت شعر ادونيس، فإذا كانت النار هي الدلالة الرمزية لأسطورة الفينق الطائر الاسطوري فإن الماء هو العنصر الذي " يرتبط به الدلالة الرمزية لاسطورة ادونيس الذي سمى نفسه به[٢].

إن ادونيس يؤكد عمق الرمز الاسطوري الذي تناوله والمستند إلى حضور الذاكرة الاسطورية الرمزية، والتي تسهم في إبعاده عن العقلانية التجريدية وصولاً إلى اعماق الانبعاث بعيداً عن الضرورة، وهذا مرتبط باللاوعي الجمعي لديه كقارئ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ١٤١.

(٢) أقنعة الشعر المعاصر، جابر عصفور، مجلة فصول ع(٤) ١٩٨١: ١٣٣.

متذوق للشعر القديم وكمبدع خلاّق متفرد في اسلوبه فضلاً عن كونه ناقداً يعرف طريقة النفاذ إلى النص، أي أن الشاعر هنا قد مارس سلطة نقدية على نصه فهو قد جمع بين ما هو اسطوري إلى الفينق، وبين ما هو فني والمتمثل في الدلالة الفنية للمفردة على نحو قوله " شعرها سفينة " فجمالية النص تتمثل في تلك الصورة الشعرية المجازية المستندة الى شكلنة جديدة للنص وذلك من خلال تلك الاشارات التي اطلقها الشاعر، والتي كانت موحية منذ مطلع القصيدة إذ جمع الشاعر ما بين البعث الذي يمثل الحياة، والانبثاق والرماد الذي يشير إلى الانتهاء.

ومما لاشك فيه أن هذا التوظيف الرمزي للأسطورة يعكس بعداً سايكولوجياً عند الشاعر فضلاً عن البعد الدلالي.

ومما يؤخذ في الحسبان هنا أن هذا التحدي للرموز أسهم في غياب الدلالة لدى القارئ إذ لم يعد فاعلاً أو طرفاً في العملية الشعرية، بل أنه في كثير من الأحايين أي (الشاعر)، ينظر إلى المبدع وكأنه كاهن يعنى بطقوسه السرية وحده، من دون الاهتمام بالآخرين(١).

والحقيقة أن الشاعر هنا غير معني بإيضاح كل شيء للقارئ، أو افهامه المغزى العام من نصه؛ ذلك أن العملية الابداعية في وظيفتها عملية حلمية، وعملية الشرح والإيضاح قد تفقد النص جماليته ورونقه، كما يجب أن يؤخذ في الحسبان ان هذا الغموض عند الشاعر، قد يؤدي إلى غياب الدلالة أو التشتت، لاسيما مع هذا الانفتاح في المعاني، وتراكم الأفكار والصور على نحو مطرد، الأمر الذي قد يصعب ادراكه أو فهمه لدى المتلقي، وهذا كله قد يأتي متزامناً مع عملية الانفصال عن الواقع، او لنقل الاستقلال أو النأي عنه، مما قد يؤدي أيضاً إلى تغييب الدلالة.

---

(١) ينظر: مقالات في الشعر العربي المعاصر، د. محمد حسين الأعرجي: ٤٨.

وقد تأتي هذه الأمور كلها متزامنة مع تبني الفكر الحداثوي القائم على تضبيب وتجاهل الموضوع، وهذا بطبيعة الحال يرجع إلى التأثير بالمذاهب والتيارات والحركات الأدبية الناهضة في العالم، والتي قد تقود الشاعر فيما بعد إلى الاعتباطية في الطرح والمعالجة، حتى أن غياب موضوع النص قد أضحى سمة حداثوية لدى طائفة كبيرة من الشعراء بدعوى التأثر بالمناهج الاوربية الحديثة، وقد انعكس اثر هذا التأثر في الانفتاح الأدبي، وفي غياب الدلالة والمعنى في النص[1]، وهذا ما نجده حاضراً في النص الأدونيسي، فالخلق الشعري عنده (الشاعر) يتمثل في شكل ورؤيا جديدة للواقع في كتابة ثورية انسانية تستخدم اللغة على وفق صيغ جديدة فهي داالة ومدلولة، وعلى وفق ذلك تجاوزت اللغة عنده حدودها الطبيعية فكان التشتت والتناقض والتشظي حاضرة في نصوصه، على نحو ما نجده في قصيدة (براءة) إذ يقول ادونيس فيها:

اتهم الأشباح
اتهم الرُّخَّ الذي يبيض
في كتف الجبنة العمياءْ
اتهم الرياحْ
والشمع والدجاجة الخرساءْ؛
اتهم الثعبان ذا الجناحْ
(يا للجناح الأبرص المهيضْ)؛
اتهم الأشجار والمياهْ
فأنت يا سماءنا المضيئة
يا زوجة السلطان والالهْ

---

(١) ينظر: الابهام في شعر الحداثة: ١٨٢.

بريئة من دمنا بريئة[1]

ونرى المفارقة هنا من عنوان النص الذي اختار له ادونيس (البراءة) مروراً باستهلاله بتكرار الفعل [اتهم] لمرات عدة مما يشير إلى إلحاح هذا الفعل. والمتأمل في النص يجده يشير إلى سلسلة متواصلة من الصور المجازية، التي قد تأتي مستغلقة بعض الشيء على المتلقي كنتيجة طبيعية لهذا التكثيف الدلالي الذي عمد إليه الشاعر، وهو يراكم العديد من الصور ذات الدلالات المختلفة حيث الاشباح، والرُّخ الذي يبيض، والجبنة العمياء، والدجاجة الخرساء إلى جوار الثعبان ذي الجناح، وكلها صور مجازية لا تنطوي على عقلانية في الطرح لغياب القرينة بين الدال والمدلول أولاً ولأن أي محاولة لفهم هذا النص لا تخرج عن إطار استكناه ذات الشاعر عبر سبر أغواره وصولاً إلى فهم دقيق لما يريد أن يعبر عنه، لاسيما أنه قد استخدم حرف العطف الواو ليجمع بين أمور مختلفة نحو قوله:

اتهم الرياح

والشمع والدجاجة الخرساءْ؛

فالرياح هنا اشارة إلى الاقتلاع والتغيير، والشمع هنا رمز لبصيص نور في ظلام ما يلبث أن ينتهي في بطء شديد والدجاجة رمز للخنوع، فكيف إذا كانت خرساء، أنها اشارة واضحة إلى الاستكانة.

إلاّ أن وراء هذه الأمور المختلفة قرينة أخرى لدى الشاعر أراد لنا أن نكتشفها فاتحين باب التأويل إلى أقصى حد ممكن لنمعن النظر في هذه المتراكمات من الصور، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة النص الادونيسي الذي تهيمن الصورة عليه

---

(١) الاعمال الشوية الكاملة ١/ ٣٤٣.

هيمنة واضحة، لاسيما الصور البصرية حيث [الرخ الذي يبيض في كتف جبنة عمياء].

فهنا تظهر الاسطورة مرة أخرى متمثلة في طائر الرُّخ الذي يبيض بيضاً كبيراً، ولكن أين في كتف جبنة عمياء، فلماذا اختار الجبنة؟ ولماذا اختار لها العمى؟ انها صورة منفصلة عن الواقع ومستغلقة؛ لضبابية المفردة الادونيسية المركبة في سياق الجملة، وهذا بطبيعة الحال أمر طبيعي إذ أن اللغة تكتسب اهميتها ضمن السياق الشعري لا خارجه؛ لأن (الكلمات المكتوبة على الصفحة لا تشكل عملاً شعرياً مكتملاً ومكتفياً بذاته بل تشكل " نصاً " أو مخططاً أو اطاراً عاماً لا يكتمل إلا بمشاركة فعّالة من قارئ مطلع على نوع المعلومات الصحيحة)[1]، وهذا يتحقق طبعاً بقارئ مثقف ناضج ومبدع، مع امكانية ان يستغلق النص الادونيسي حتى على القارئ المبدع، مع سعة اطلاعه وثقافته على نحو ما أشار إليه الدكتور محمد حسين الأعرجي حينما تحدث عن شعر ادونيس قائلاً: " ويزيد في غموض القصيدة عند ادونيس انك لا تستطيع أن تفك رموزها بسهولة حتى ليستغلق عليك الفهم في أحيان غير قليلة واعترف اني – حتى الآن لا أستطيع فك هذا الطلسم في قوله من القصيدة نفسها

من أين هذا الزمن المشقق المدهون
بالنسيم الباريء
والطاعون
من أين! كيف تصيح الربابة
قرتين أو ذبابة؟!!

(١) سيمياء النص الشعري، روبرت شولز، اللغة والخطاب الأدبي: ٩٤.

وإذا كنت قادراً أن أفهم أن الزمن المشقق المدهون يعني فيما يعنيه – التناقض جتى ليجتمع فيه الموت " الطاعون، بالنسم الباري " الذي هو الخلق، فانني لا استطيع ولاأقدر أن أفهم علاقة " الربابة " " بالقرنين " أو " الذبابة " حدساً أو تخميناً، فهماً أو ايحاءً)) [1].

ومما لا شك فيه أن مثل هذا الرأي الصادر عن قارئ مثقف يجعلنا نفكر ملياً في ماهية هذا النهج الذي رسمهُ ادونيس لنفسه، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لمن يكتب ادونيس، لنفسه، للقارئ النموذجي، أم للقارئ العادي علماً بأن القارئ العادي لا يدرك حتماً المغزى العام من النص الادونيسي، لأنه يفتقد إلى الأدوات التي تؤهله لإدراك ذلك، أما القارئ المثقف والنموذجي فإنه قد يدرك بعضاً ويخفى عليه البعض الآخر من الأفكار والصور، إذ قد تستغلق عليه بعض الدلالات الأمر الذي يجعلنا نجزم بان ادونيس معني بنقل رؤية شعرية خاصة على وفق نظام لغوي خاص به من دون أن يعنى بالقارئ الذي سيطلع على نصه فيما بعد؛ لأنه بإزاء تجربة شعرية تثقل عليه هذا من جانب،ومن جانب آخر انفتاحه على التجارب الأدبية والنقدية العالمية، وأخذه منها الشيء الكثير من دون الإشارة إلى مواطن التأثر هذه، ومن دون الإحالة إلى بعض مغاليقها لتضحى فيما بعد واضحة لدينا، فادونيس يراكم المعلومات لديه، ثم ما يلبث أن يعيد صياغتها على وفق فهمه الخاص وارادته الشعرية الخاصة، ولذلك تأتي نصوصه مشتت وغابت الدلالة في مواضع كثيرة من مجموعته الشعرية.

كما أن أي محاولة من المتلقي لفك شفرة النص الادونيسي، قد تأتي خاضعة لوجهات نظر فردية؛ لأن كل قارئ قد يؤسس في ذهنه وهو يقرأ النص دلالات خطية لبعض الكلمات أو العبارات، ثم يقوم بعد ذلك بوضع هذه الدلالات مع مماثلاتها،

---

(١) مقالات في الشعر العربي المعاصر: ٤٧.

مما يلمسه في عبارات أخرى من النص نفسه، وعندنا يشعر بوجود جذر مشترك وعلى وفق ذلك ندرك شخصية العمل الأدبي وغنى صفاته[١].

ومع تعدد وتنوع الدلالات الخطية وغياب الموضوع كما سبق وأسلفنا تزداد رقعة التشتت في النص، وتزداد معها حيرة القارئ المتمحص لها.

إن هذه التنوعات الدلالية التي تحراها الشاعر قادته إلى الانفرادات التعبيرية وإلى التنوع اللامتناهي، فهو عبر دواوينه الشعرية ينتقل عبر موضوعاته كالحلم لا يحده شيء؛ لأنه غير قابل للتحديد ولكنه قابل للتحديث، وشعره يقوم على وفق جدلية الانفتاح مقابل الانغلاق، وجدلية البداية مقابل جدلية النهاية، إذ أنه يرفض الانغلاق على نمط معين والانتهاء عنده، وهو بذلك ينحاز عن غيره من الشعراء في ابتكاره للنماذج الشعرية ودفاعه عنها، ومن ثم خروجه عنها إلى نماذج جديدة أخرى وهكذا.

فهنا السعي الحثيث إلى المغايرة والانفراد يمثل الفرق ما بين التعبير المجرد والخلق الفني، فالقصيدة الحديثة والطليعية هي قصيدة خلّق إذ تصدم القارئ بما لم يكن يعرفه من قبل في بنية شكلية غير معروفة، وهي على وفق ذلك لا تعكس، وتلك هي الخاصية الجوهرية للعصر الحديث[٢]، الذي قد يغادر المنطق في رؤيته ومعالجته للقضايا الشعرية؛ لارتباطه بفردانية المبدع وذاتيتهُ المنغلقة التي قد تحيله في كثير من الأحايين إلى حيث اللامعقول واللاممكن على نحو ما سنجده في النص الآتي الذي يحمل عنوان " شجرة الكأبة " إذ يقول:

ورق يتقدم يرتاح في حفرة الكتابة
حاملاً زهرة الكآبة
قبل أن يصبح الكلام

---

(١) ينظر: النقد والدلالة، محمد عزّام: ٥٧.

(٢) ينظر: الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها: ٦١.

حداً

يتناسل في قشرة الظلام

ورق سائح يتقدم يرتاد أرض الغرابة

غاية بعد غاية

حاملاً زهرة الكأبة[1]

تتراكم الانزياحيات في هذا النص تزاحماً مطرداً انطلاقاً من عنوانه " شجرة الكآبة "، التي تشير إلى النمو والاتساع حتى لكأنها هيمنت وأضحت شجرة في اتساعها وتفرعها، مروراً بـ (يتقدم الورق) و (حفرة الكتابة) و (زهرة الكأبة) و (قشرة الظلام) و (الورق السائح)، إذ راكم الشاعر العديد من الصور المجازية في إطار يكشف عن عمق مأساة الانسان التي تعتمل في داخله، حيث تضحي الكتابة مغيرة تتساقط فيها الكلمات اذ لا جدوى من الكلام فهو تكرار وتكرار لما سبق، فالغربة الشعورية هنا واضحة أيما وضوح، والشاعر يحيلنا إليها عبر مفرداته التي انتقاها بغاية الدقة، فكل مفردة من هذه المفردات غنية وموحية داخل السياق الشعري الادونيسي، فهو قد نظم المفردات خدمة لأفكاره، التي هي ذات الأفكار التي يتداولها الناس.

إلاّ أن ادونيس قد أضاف عليها النظم والوزن الشعري، كما لو أنه إناء يسكب فيه هذه الأفكار، ليقوم المتلقي بعد ذلك باستخراج المعنى من هذا النص وغيره من النصوص، ولما كان الغموض سمة هذه النصوص الشعرية وجده المتلقي يعمد في كثير من الأحايين إلى تحويل الشعر إلى لغة التجربة الحياتية والفكرية التي يعيشها، وهذا يقود بطبيعة الحال إلى أن الفكر ذائب في الشعر وفي لغة الشاعر ورؤيته

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ٢١.

وتجربتـه – لأنـه مركـب انفعـالات ومشـاعر وأخيلـة وتسـاؤلات، أنـه وحـدة الانفعـال واواستبصار انه بتعبير آخر قلب ينبض داخل الرأس، ورأس يتأمل داخل القلب[١].

ومن خلال هذه المزاوجة التي يعقدها ادونيس بين الرأس والقلب تضيع الدلالة ويتشتت المعنى؛ لإنحصاره ضمن ذاتية وفردانية المبدع، وهذا كله يحصل في إطار من التمازجات بين الثقافة المحلية التي يمثلها الشاعر، والثقافات المستوردة من الخارج، وذلك ما عبر عنه الشاعر بقوله: " كان شعري يمثل فعلاً، ما بين أصدقائي في مجلة " شعر " مزيجاً بين القديم والحديث، بين خصائص الشعرية العربية كما أفهمها، والأساليب الفنية التي كنت استقيها من الشعر غير العربي "[٢]، ومثل هذه الاندماجات تحدث ضمن اطار العصرنة والمعاصرة لما هو موجود في العالم، وهذا النهج من شأنه أن يحدث تغييراً في نسيج النص اللغوي، ولاسيما في علاقات النص على نحو ما نجده في النص الأتي الذي يحمل عنوان " تولد عيناه " إذ يقول:

في الصخرة المجنونة الدائرة
تبحث عن سيزيف،
تُولد عيناه،
تولد عيناه.
في الأعين المطفأة الحائرة
تسأل عن أريانْ،
تولد عيناهُ،
في شعر يسيل كالنزيف
من جثة المكانْ،
في عالم يلبس وجه الموتْ

---

(١) ينظر: محاظرات الاسكندرية، ادونيس: ٦٥، ٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥.

لالغةٌ تصبره لا صوتْ

تولد عيناه [1]

الشعر في جوهره تراكيب لغوية توضع ضمن إطار مقاطع صوتية تمتاز بأنها تشكل ضمن إطار خاص يطبعه الشاعر بطابعه التخييلي الخاص، على وفق مرجعياته الثقافية وامكانياته التعبيرية ومقدراته الشعرية، وادونيس في نصه هذا يوظف شخصية سيزيف بوصفه رمزاً اسطورياً، يشير إلى هراء وسخف ولا منطقية ولا عقلانية الحياة الانسانية التي تحياها ولكنها أي الشخصية تشير في الوقت نفسه إلى فكرة الخلاص والنضال والصراع والكفاح كفيلة بأن تملأ فؤاد الإنسان بالفرح[2].

إن اختيار ادونيس لهذه الرموز الاسطورية يعطيه هوية خاصة يتطبع شعره معها بطابع خاص، فهو يرى أن على الشاعر ((أن يغير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم، والتي عبر تغييرها، مجازياً، تنشأ صور وطاقات لتغيير العالم، مادياً. دون ذلك لا يكون الشاعر كاتباً – أي يمارس لتعبير عن طاقة خلاّقة وفعالة، وإنما يكون مُستكتباً يقوم بوظيفة محددة. إن دور الشعر في شعريته ذاتها، في كونه خرقاً مستمراً للمعطى السائد.

وإذا كان لابد من الكلام على انحياز ما أو التزام، في هذا الصدد، فإنه الانحياز إلى الحرية الكاملة في إبداع هذا الخرق. هنا تكمن اختلافية الشاعر أي فرادته. وهنا تكون فاعليته وفاعلية الشعر)) [3]. إن هذا يحيلنا مرة أخرى إلى شخصية سيزيف التي تناولها ادونيس لتعني فيما تعنيه رمزاً للاستمرارية في إشارة منه إلى المعالم غير المحددة وغير الواضحة والمتغيرة التي يسلكها وصولاً إلى المستحيل. والدلالة هنا قد تتشتت وتغيب على المتلقي لأسباب منها بعد الإشارة بين

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٢٤١.

(٢) ينظر: صخرة سيزيف بين العقوبة والرجاء، خلدون جاويد، بحث مستل من الأنترنيت.

(٣) سياسة الشعر، ادونيس: ٢٠.

الاسطورة التي اتخذها وبين الواقع الملموس الذي يريده ادونيس، الأمر الذي قد يسهم الايضاح التاريخي في ترسيم معالمه ومعالجته بصورة صحيحة، فضلاً عن التكرار الحاصل في الأفكار داخل النص، ولاسيما مع تكرار قوله:

تُولد عيناه،

تولد عيناه

في الأعين المطفأة الحائرة.

وهكذا يسعى ادونيس إلى البحث عن عالمه الشعري الخاص به حتى اننا لنجده يكرر رموزه الاسطورية في قصائد عدة وكأنه قد تبناها على نحو كلي كما في تكرار استخدامه لرمز سيزيف الاسطوري في نص آخر يحمل عنوان (إلى سيزيف) إذ يقول:

اقسمت أن اكتب فوق الماءْ

أقسمت أن أحمل مع سيزيف

صخرته الصماءْ

أقسمت أن أظلّ مع سيزيف

أخضع للحُميّ وللشرار

أبحث في المحاجر الضريرة

عن ريشة اخيرة

تكتب للعش وللخريف

قصيدة الغباره

أقسمت أن أعيش مع سيزيف[1].

---

(١) الاعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٣٣٠.

كرر ادونيس في نصه هذا استخدام شخصية سيزيف في محاولة منه لتأكيد معنى يدور في خلده يتمثل في أننا مهما كررنا فعلنا اليومي الميكانيكي في مزاولة شؤون حياتنا، مثل البطل سيزيف الذي حمل الصخرة مراراً وتكراراً مهما كررنا اعمالنا فإننا متعلقون بالحياة ومتشبثون بها[١].

ومثلما يحاول سيزيف حمل الصخرة مراراً وتكراراً لأعلى الجبل، ويتحمل المشاق، فإن ادونيس قد تخير له عملاً صعباً لا يقل صعوبة ومشقة عن تخيره سيزيف ألاّ وهو أن يكتب فوق الماء.

لقد تخير الشاعر من سيزيف رمزاً يتخلص وراءه ليبث آماله وطموحاته ومخاوفه وأحزانه، فسيزيف كتلة من التناقضات بين الأمل وبين اليأس تتأرجح حياته وادونيس كذلك ما بين ما هو كائن وداخلي وبين ما هو حلمي وخيالي يحاول أن يشق له طريقاً وسط هذا وذاك يرسم ملمحاً خاصاً به دون غيره من الشعراء الذين سبقوه، أو الذين يعاصرونه.

ومن أجل ذلك نجد شعره يدور ما بين المعنى القديم والحديث وبين التراث والمعاصرة، وكأنه قد انتهج نهجاً خاصاً يطبع شعره به مع ملاحظة أن ادونيس يحاول غالباً تنويع أساليبه الشعرية، وهذا ما اكسبه صفة التفرد في الصياغة وفي شكل التعبير إذ أن التنوع عنده يتسع إلى أقصى الحدود، إلى ما لانهاية، فشعره كالحلم لايمكن تحديده فهو يؤمن بجدلية الانفتاح الشعري ويرفض الانغلاق والنهاية، أنه يؤمن بالتجريب ويتحراه في شعره فهو يرى أن: ((الشعر التجريبي العربي هو وحده الشعر الجديد وهو وحده الشعر الثوري. أنه أولاً – ليس متابعة ولا انسجاماً ولا ائتلافاً، وإنما هو على العكس اختلاف وهو ثانياً بحث مستمر عن نظام أخر للكتابة الشعرية. وهو ثالثاً تحرك دائم في أفق الإبداع لا منهجية مسبّقة بل مفاجآت مستمرة.

---

(١) صخرة سيزيف بين العقوبة والرجاء، خلدون جاويد موقع الناس //http://al_nnas.com

وهو رابعاً، ليس تراكماً، كما هو الحال في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، بل بداية دائمة. فقيم الإبداع الشعري ليست تراكمية، بل انبثاقية، وهو أخيراً، عالم أفضل، وحياة انسانية أرقى "[1].

ومما لا شك فيه أن للإيمان بهذه المنطلقات الأدبية أثر في النص الشعري إذ مع اعتماد التجريب كمنهج اساسي في التناول الشعري يتحرى الشاعر مناح ابداعية جديدة ومبتكرة قد تغمض دلالتها على المتلقي سواء من حيث الشكل الشعري أو الأفكار واللغة، الأمر الذي قد يسهم في غياب المعنى لدى المتلقي ومن ثم تغييب الدلالة ويتشتت المعنى تبعاً لهذا الغموض وذلك الاستبسار في الطرح والمعالجة لأن النص الإبداعي ليس مجرد ايصال، كما يقول ادونيس، أنه تأثير يحدثه المبدع في القارئ أنه مشروع دلالي يريد أن يحدث أثراً في القارئ لا أن يعلمه، فالنص الإبداعي تبعاً لذلك، ليس تلبية او جواباً وإنما هو على العكس دعوة أو سؤال[2].

---

(١) زمن الشعر: ١٤٩.

(٢) ينظر: سياسة الشعر: ٦٠.

الخاتمة

- يتحرى الشاعر في الكثير من نصوصه الغموض لأن فيه عمقاً وبعداً دلالياً ومن ثم سيؤدي هذا الغموض إلى غياب المعنى وتشتتهِ لدى المتلقي (القارئ).
- يوظف الشاعر في نصوصه المفردات والكلمات على نحو قسري لا عفوي نتيجة لمجموعة من التشابكات الدلالية في ثقافة الشاعر الجمالية والفلسفية لتدخل بالتالي إلى عوالم غير مألوفة ولا منطقية مما يصعب على القارئ فهمها بصورة صحيحة.
- يمارس الشاعر في كثير من نصوصه العملية النقدية وذلك من خلال الجمع بين الامور الفنية الجمالية والامور الاسطورية الخيالية، ليضفي على نصه العمق الاسطوري الرمزي بكونه قارئاً جيداً للشعر القديم وكاتباً مبدعاً للشعر الحديث، وبحضور هذا البعد الرمزي الاسطوري يكون قد أسهم في غياب الدلالة لدى القارئ.
- تتمثل الشعرية الادونيسية حالة خلاّقة في الوجود الإبداعي، وذلك من خلال إضفاء شكل ورؤيا جديدة للواقع بين الدال والمدلول.
- يعمد الشاعر إلى التكثيف الدلالي إذ يراكم العديد من الصور ذات الدلالات المختلفة والتي تكون مستغلقة على المتلقي، نتيجة لتراكم الصور المجازية التي تؤدي إلى اللاعقلي واللامألوف واللامنطقي إذ تضيع القرنية بين الدال والمدلول، إذ أن الشاعر مهتم بنقل الرؤية الشعرية لديه على وفق نظام لغوي خاص به دون الاهتمام بالمستويات الثقافية واللغوية لدى المتلقي.

المصادر والمراجع

١- الإبهام في شعر الحداثة العوامل والمظاهر وآليات التأويل د. عبد الرحمن محمد القعود، منشورات عالم المعرفة، مطابع السياسة الكويت ٢٠٠٢م.

٢- الأعمال الشعرية الكاملة، ادونيس، الهيئة العامة لقصور الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ٢٠٠٧م.

٣- الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها د. محمد حمود، الشركة العالمية للكتاب الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٤- دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي و د. سعد اليازعي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء – المغرب الطبعة الثالثة ٢٠٠٢.

٥- زمن الشعر، ادونيس، دار الساقي الطبعة السادسة ٢٠٠٥.

٦- سياسة الشعر دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، دار الآداب بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥.

٧- سيمياء النص الشعري روبرت شولز – اللغة والخطاب الأدبي، اختيار وترجمة سعيد الغانمي المركز الثقافي العربي الطبعة الاولى ١٩٩٣.

٨- الشعر والتأويل قراءة في شعر ادونيس، عبد العزيز مسهولي، افريقيا الشرق المغرب ١٩٩٨.

٩- محاظرات الاسكندرية ادونيس، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ايلول ٢٠٠٨.

١٠- مقالات في الشعر العربي المعاصر د. محمد حسين الأعرجي، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد الطبعة الاولى ٢٠٠٧.

١١- النظام والكلام، ادونيس دار الآداب بيروت (ب ت)

١٢- النقد والدلالة نحو تحليل سيمائي للأدب محمد عزّام منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٩٦.

المجلات

اقنعة الشعر المعاصر، جابر عصفور مجلة فصول ع ٤ ١٩٨١.

البحوث المستلة من الأنترنيت

صخرة سيزيف بين العقوبة والرجاء – خلدون جاويد موقع الناس /http://al_nnas.com